وكان من المستحيل من الوجهة العملية لاكثر من مجموعات قليلة من الشتات اليهودي امكانية الهجرة الى فلسطين والاستيطان فيها · وتمتعت هذه المجموعات في جميع العهود التي مرت على فلسطين بحق العيش والعبادة ·

وتناول توينبي بالتفصيل وضع اليهود بعد ان طردوا من فلسطين حيث شقوا طريقهم للحياة وسط شعوب اخرى ، دون ان يكون لهم بلد خاص يشكلون فيه الاغلبية ، ولكنهم ظلوا مجتمعا واعيا لذاته بفضل تنظيمهم الديني الخاص وتمسكهم بالشريعة والعادات والطبائع اليهودية · ولا شك ان العلاقة ما بين اليهود وجيرانهم من غير اليهود قد طرحت مشكلة للطرفين ، وجرت محاولات كثيرة لحل هذه المشكلة اولها في العالم الغربي في العصر الوسيط ، وكانت على اساس خطوط التمييز العنصري في ظل نظام « الغيتو » ولكن هذه العلاقة لم تكن منصفة ودفع اليهود ثمنها احيانا ·

وكان تحرر يهود الغرب في العصر الحديث من « الغيتو » محاولة للتخلص من هذا (التناقض) في طبيعة المجتمع اليهودي ، فتحرر اليهودي سياسيا ومدنيا كان يعني اندماجه قوميا في الدولة الغربية ، اما في حياته الدينية فكان عليه ان يصبح عضوا في مجتمع ديني يهودي واسع وعالمي · يرى توينبي ان عملية التحرر كان يمكن ان تعطي حلا لمشكلة العلاقات بين اليهود وغير اليهود لو تم التحرر نهائيا ، وان تصبح اليهودية المثل الوحيد لنموذج بعيد عن ارتباطات محلية مبنية على الدم والارض · الا انها وقفت في مفترق الطرق بين ان تظل جماعة عرقية مغلقة من النموذج القديم ، او ان تصبح جماعة دينية منفتحة من النموذج الجديد ·

ولسوء الحظ لم يكن لعملية التحرر هذه حظ ضئيل من النجاح يعادل حوالي واحد في المئة خلال القرن الماضي · فالغربيون من غير اليهود لم يتخلوا عن نظرتهم التقليدية في التميز تجاه اليهود ، كما ان اليهود الغربيين بدورهم لم يتخلوا عن نظرتهم التقليدية في العزل الذاتي العرقي ، وكان فشل الجانبين في العمل من اجل الغاء الحاجز العرقي التقليدي ذا نتائج مأساوية ·

ويجد توينبي في الصهيونية محاولة ثانية جرت لحل مشكلة العلاقات بين اليهود وغير اليهود · واحد المشاعر الكامنة وراء نشأة الصهيونية هي التشاؤم حول احتمالات نجاح عملية التحرر في المستقبل · وهو تشاؤم ـ كما يقول ـ مبالغ به ، او قبل اوانه ، وقد يكون السبب الاعمق الكامن وراء الصهيونية ، رد فعل الجانب العرقي في الضمير اليهودي الجماعي · ويعتبر توينبي الصهيونية جزءا من موجة قومية شوفينية تدفقت في الغرب واكتسحت بقية انحاء العالم · وفي اعماقها تعبر هي و « معاداة السامية » عن وجهة نظر واحدة · فالفرضية التي تكمن وراء العقيدتين هي استحالة التعايش بين اليهود وغير اليهود في مجتمع واحد · والحل العملي الوحيد هو التمييز الطبيعي ،